الفِعْل الأخْلاقِي بين الساكن والمتحرك

أ. خولة الجهيمان
باحثة
تويتر: @khawlaj

لا سمو للنفس إلا بنوع من الخُلق الرافع إلى الفضيلة، من خُلقك مع نفسك في الترفع عن كل فعل يُدنّيك، إلى خُلقك مع غيرك في ذكر محاسنهم والإحسان لهم، إلى خُلقك مع مُخالفك بإنصافك له وقت خصومتك معه، ليستريح الضمير، وتحمد الروح نبلًا وكرامة.

ولن تكون الأخلاق من حيث هي حركة في النفس والمجتمع مستقرة، إلا إذا ثبتت في الضمير والمواقف على السواء، إذ لا انفصام بين باطن وظاهر، بل هما معًا يتكاملان ليُنتجان سلوكًا محدد المعالم، يصل بالإنسان لمنابع الضمير الحي والمعرفة الحقة الموصلة لكمال الفضيلة.

إن البحث في مسألة علاقة الفعل الأخلاقي بين الساكن والمتحرك يُعد أمرًا ملحًا لتأثره وتأثيره على الواقع المعاش والوجود والحضارة الإنسانية.

فالفعل كما يعرفه حمو النقاري: «هو سلوك أو سعي يتوخى ترك آثار أو إلحاق تعديل على الأشياء في وجودها أو دلالتها أو اشتغالها، بمجهود يُبذل بكيفية إرادية ومنظمة، في أفق تحقيق غرض من أغراض أو تحصيل نتيجة من النتائج، ولا بد لهذا النشاط التأثيري أو المؤثر أن يكون وفق قواعد وأصول مُحدَّدة ومُحدِدة».(١)

ويمكننا النظر إلى الأخلاق بوصفها ساكنة ومتحركة، فالساكن هو الإملاء الوجداني، والشق المتغير هي الأخلاق المتحركة المتفاعلة مع الفعل والحدث.

وهنا سؤال... بماذا يتحدد الفعل الأخلاقي؟ ما هو الشق الجوهري والأساسي... أهو الساكن أم المتحرك؟

إن العقلنة الغربية تقوم بإفراغ وتحليل القيمة والأخلاق من مضمونها الوجداني واحلالها موضوعًا للعقل وتحديدها بالنسبية، حيث تتفاعل مع أنساق المجتمع المنفعية والمصلحة الذاتية المتغيرة، أو إسقاطها في دوافع نفسية مندفعة، بينما الأخلاق ابتداء تبدأ من الوجدان الذي يشعر ويدرك قيمته وأخلاقه بتفاعله وجدانيًا مع الواقع والفعل كي لا تبقى جامدة دون تفعيل ولا ضيقة دون اتساع، فهي منظومة معايير كلية تُنظم كافة الحياة، وتقوم بها مختلف الفاعليات الإنسانية: من المبدأ والسلوك في النظر كما العمل.

فالفعل الأخلاقي تؤطره حلقتان:

حلقة الفكر وتحديد حاجاتها واهتماماتها ومراتبها العليا، وحلقة السلوك التي تحرك الجوارح إلى مبتغاها ومقصدها، فالأخلاق الساكنة حيث يكون القول غاية ذاته، والأخلاق المتحركة حيث يكون الفعل أداة لغاية ذاته وغيره، ويأتي الانفصام بين المبدأ والسلوك والقول والفعل عندما تتفاعل وتختبر دائرة القول في عالم الماديات والمنفعة والمصلحة بالممارسة الفعلية، فتتنزل من الواقع التنظيري إلى الواقع الحركي ليتم إثبات صمودها وعمق ميثاقها في باطنه، ولحركة الانفصال اعتبارات عدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- النسبية الأخلاقية: ربط الأخلاق بالمتغيرات والوقائع المتبدلة والمصلحة والمنفعة البشرية، بينما الأخلاق منظومة متكاملة يؤطرها الضمير الحي والإيمان الفاعل والإرادة الحرة.

- إجرائية الأخلاق: يُنظر إلى الأخلاق باعتبارها وسائل ومُجردات وليست مرجعا، ومُعينات ومصدرا تقوم عليه الحياة.

- تسيُّد أخلاقٍ جديدة مُستخرجه من المركزية الغربية، وتوهين جزء من الأخلاق باعتبارها لا تناسب الواقع المعاش.

تخليق الوجود الإنساني:

التناقض بين القول والفعل وغلبة جانب القول على جانب الفعل أحدث فجوة بين العالم الجوّاني والعالم البرّاني، بين ما يؤمن به وما يعمله، بين الفرد وذاته، وبين الفرد والفرد، والفرد وجماعته، فأثر هذا الانفصال يتجاوز الذات إلى المجتمع، فالأفعال هي الجانب السلوكي الحركي، والأقوال الجانب المنطوق منه الكامن في وجدان وقناعة الفرد، ولذلك كان مما يعين على تخليق الأخلاق واستعادة محوريتها في الوجود الإنساني عدة مبادئ منها:

- مبدأ الاستبصار: استشعار الفرد أن الأخلاق من الالتزامات التعبدية المأمور بها ابتداءً، فينشغل بها ممارسة ومواظبة، ويستبصر في طريقه حال الفعل من ناحية النية والقصد، ومآلها من ناحية الفائدة والثمرة. قال صلى الله عليه وسلم: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق».(٢)

-مبدأ التقييم: مراجعة الفرد لأفعاله على الدوام، وسعيه لإبقاء ضميره حيًا ليترفع الفرد منزلتين، منزلة المجاهدة ومنزلة السكينة.

- مبدأ التزكية: من أشكال التربية الذاتية الخُلقية، حيث يتم فيها مجاهدة الذات ومناضلة النفس بواسطة الأعمال المقررة شرعًا من تحقيق القيم الأخلاقية، وذلك بغية الرضا الإلهي وسمو الذات نحو الأفضلية والترقية الروحية، لتخرج الفرد من نطاقه الضيق الفردي إلى ما هو أوسع.

- مبدأ المسؤولية الحرة: الذات تجد نفسها في الفعل والحركية بين خيارات واسعة بين الفعل وعدمه، أو اتخاذ موقفًا وسطًا بين الفعل والترك، وهنا العدل مع الذات يظهر وتوازن الروح، فالإرادة الحرة تستقيم بالعمل المتسع المستمر القاصد للخيرية والمحقق للأمانة الربانية، فيذكر الفاروقي: «أن القيمة الأخلاقية للفعل الحر هي الشق الأسمى من الإرادة الإلهية، التي لأجلها خلق الله الإنسان، وأنعم عليه بأن جعله خليفة بأمره في الأرض».(٣)

- مبدأ الاستمرارية: حري بالفرد استشعار أن الأخلاق هي ودائع فيه متى أحسن التصرف وألحقها منزلتها وقيمتها تفاعلت حركتها، فالفرد يعيش في مراقبة مستمرة لذاته وإصلاحها وتهذيبها مترقيًا في مدارجه ليصل للتخلق المأمور به، ويذكر طه عبد الرحمن بهذا الخصوص: «لا يُحصّل الإنسان تكوينه الأخلاقي دفعة واحدة، وإنما على أطوار متوالية، بحيث يتقلب بين أشكال مختلفة من الأخلاق ليصل إلى أخلاق الفضيلة، وهي الرتبة العليا».(٤) فالإنسان في تخلق مستمر.

خاتمة

إن نموذج الإنسان المرغوب فيه، إنسان فلسفة (أحسن تقويم)، يجد حقيقة كينونته في: الانتساب الإيماني والتكامل الأخلاقي، فإن الانتساب إلى الإيمان يعود بهوية الإنسانية إلى حقيقتها الأخلاقية المفقودة، فالتكامل الأخلاقي مبناه على التسليم بأن الإنسان جيء به إلى هذا العالم لأجل أن يتكامل بالمعرفة والدعاء، لأن منتهى إرادة المعرفة هي الوصول إلى الله، والتسليم له، والتوكل عليه، والتكامل الأخلاقي يُبنى بدوره على الانتساب الإيماني، فهو الذي يجعل القيم الروحية تتكامل مع القيم الحيوية، والقيم الفردية مع القيم الجماعية، والأشواق الروحية مع الحاجات المادية، كي يكون لائقًا بالأمانة الإلهية، وخليفةً أمينًا على هذه الأرض. (٥)

المراجع:

(١) النقاري، حمو، ٢٠١٧م (روح التفلسف المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت.

(٢)رواه أبو داود، وصححه الألباني.

(٣) الفاروقي، إسماعيل،٢٠١٤م (التوحيد، مضامينه على الفكر والحياة)، ترجمة السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة.

(٤) عبد الرحمن، طه، ٢٠١٤م (بؤس الداهرانية، النقد الائتمائي لفصل الأخلاق عن الدين)، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

(٥) النورسي، بديع الزمان،٢٠١٤م (الإيمان وتكامل الإنسان، سلسلة رسائل النور) ترجمة قاسم الصالحي.